

التحرير والتنوير

وأما معناه فهو استفهام مؤذن بأن قومه فصلوا إجمالاً وصفهم أتباعه بالأرذلين بأن بينوا
أوصافاً من أحوال أهل الحاجة الذين لا يعبأ الناس فأتى بالاستفهام عن علمه واستفها ما
مستعملما في قلة الاعتناء بالمستفهم عنه وهو كناية عن قلة جدواه لأن الاستفهام عن الشيء
يؤذن بالجهل به والجهل تلازمـه قلة العناية بالمحظـول وضعـف شأنـه كما يقال لك : يهدـك فلان
فتقول : وما فلان أي لا يعبـأ به . وفي خبر وهـب بن كيسـان عن جابرـ بن عبدـ الله أن أبا عبيـدة
كان يقوـتنا كل يوم تمرة فقال وهـب : قلت وما تغـني عنـكم تمرة .

والمعنى : أي شيء علمي بما كانوا يعملون حتى اشتغل بتحصيل علم ما كانوا يعملون وأعمالهم بما يناسب مراتبهم فأنا لا أهتم بما قبل إيمانهم .
و ضمن (علمي) معنى اشتغالني واهتمامي فعدى بالباء .

و (ما كانوا يعملون) موصول ما صدقه الحالة لأن الحالة لا تخلو من عمل . فالمعنى : وما علمي بأعمالهم . وهذا كما يقال في السؤال عن أحد : ماذا فعل فلان ؟ أي ما خبره وما حاله ؟ ومنه قول النبي A للصبي الأنصاري " يا أبا عمير ما فعل النغير " لطائر يسمى النغر " بوزن صرد " وهو من نوع الببل كان عند الصبي يلعب به ومنه قوله لمن سأله عن الذين ما توا من صبيان المشركين " إِنَّمَا أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ " أي إِنَّمَا أَعْلَمُ بِحَالِهِمْ فَهُوَ أَمْسَاكٌ عَنِ الْجَوابِ . وقريب منه قول العرب : ما باله أي ما حاله ؟ .

مدلول تأكيد أي التأكيد لإفاده وصلتها الموصولة (ما) بين مزيد (كانوا) و فعل ما علمي بما كانوا يعملون) . والمعنى : أي شيء علمي بما يعملون . وليس المراد بما كانوا عملوه من قبل . والواو في قوله (بما كانوا) فاعل وليس اسماء ل (كان) لأن (كان) الزائدة لا تنصب الخبر .

وَشَمَلْ قُولَهُ (بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) جَمِيعَ أَحْوَالِهِمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَا هُمْ فِي الْمَاضِيِّ وَالْحَالِ وَالْمُسْتَقْبِلِ وَالظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ .

والحساب حقيقته : أن إهانة هو الذي يتولى معايلتهم بما أسلفوا وما يعملون وبحقائق أعمالهم . وهذا المقال اقتضاه قوله (وما علمي بما كانوا يعملون) من شموله جميع أعمالهم الظاهرة والباطنة التي منها ما يحاسبون عليه وهو الأهم عند الرسول المشرع فلذلك لما قال (وما علمي بما كانوا يعملون) أتبعه بقوله (إن حسابهم إلا على ربِّي) على عادة أهل الإرشاد في عدم إهمال فرسته . وهذا كقول النبي ﷺ : (فإذا قالوها (أي لا إله إلا إله) عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على إهانة) أي تحقيق مطابقة باطنهم

لطا هرهم على إهـ .

وزاد نوح قوله بيانا بقوله (وما أنا بطارد المؤمنين إن أنا إلا نذير مبين) وبين هذا المعنى قوله في الآية الأخرى (إهـ أعلم بما في أنفسهم) في سورة هود .

والقصر في قوله (إن حسابهم إلا على ربـ) قصر موصوف على الصفة والموصوف هو حسابـ بهـ والصفة هي على ربـ لأنـ المجرورـ الخبرـ فيـ قـوـةـ الـوـصـفـ إـنـ الـمـجـرـوـرـاتـ وـالـظـرـوـفـ الـوـاقـعـةـ أـخـبـارـاـ تـتـضـمـنـ معـنـىـ يـتـصـفـ بـهـ الـمـبـتـدـأـ وـهـ الـحـصـولـ وـالـثـبـوتـ الـمـقـدـرـ فـيـ الـكـلـامـ بـكـائـنـ أـوـ مـسـتـقـرـ كـمـ بـيـنـهـ عـلـمـاءـ النـحـوـ .ـ وـالـتـقـدـيرـ :ـ حـسـابـهـمـ مـقـصـورـ عـلـىـ الـاتـصـافـ بـمـدـلـولـ (ـ عـلـىـ رـبـيـ)ـ .ـ وـكـذـلـكـ قـدـرـهـ السـكـاكـيـ فـيـ الـمـفـتـاحـ وـهـ قـصـرـ إـنـ فـرـادـ إـضاـ فـيـ أـيـ لـاـ يـتـجـاـزـ الـكـوـنـ عـلـىـ رـبـيـ إـلـىـ الـاتـصـافـ بـكـوـنـهـ عـلـيـ .ـ وـهـ رـدـ لـمـاـ تـضـمـنـهـ كـلـامـ قـوـمـهـ مـنـ مـطـالـبـتـهـ بـإـبـعادـ الـذـيـنـ آـمـنـواـ لـأـنـهـمـ لـيـسـتـحـقـونـ أـنـ يـكـوـنـواـ مـسـاـوـيـنـ لـهـمـ فـيـ الـإـيمـانـ الـذـيـ طـلـبـهـ نـوـحـ مـنـ قـوـمـهـ .ـ وـقـوـلـهـ (ـ لـوـ تـشـعـرـوـنـ)ـ تـجـهـيلـ لـهـمـ وـرـغـمـ لـغـرـورـهـمـ وـإـعـجـابـهـمـ الـبـاطـلـ .ـ وـجـوـابـ (ـ لـوـ)ـ مـحـذـوفـ دـلـ

عـلـيـهـ مـاـ قـبـلـهـ .ـ وـالـتـقـدـيرـ :ـ لـوـ تـشـعـرـوـنـ لـشـعـرـتـمـ بـأـنـ حـسـابـهـمـ عـلـىـ إهـ لـاـ عـلـيـ فـلـمـاـ سـأـلـتـمـوـنـيـهـ .ـ وـدـلـ عـلـىـ أـنـهـ جـهـلـهـمـ قـوـلـهـ فـيـ سـوـرـةـ هـوـدـ (ـ وـلـكـنـكـمـ قـوـمـ تـجـهـلـوـنـ)ـ .ـ هـذـاـ هـوـ التـفـسـيرـ الـذـيـ يـطـاـبـقـ نـظـمـ الـآـيـةـ وـمـعـنـاهـاـ مـنـ غـيـرـ اـحـتـيـاجـ إـلـىـ زـيـادـاتـ وـفـروـضـ .ـ

وـالـمـفـسـرـوـنـ نـحـواـ مـنـحـيـ تـأـوـيلـ (ـ الـأـرـذـلـوـنـ)ـ أـنـهـمـ الـمـوـصـفـوـنـ بـالـرـذـالـةـ الـدـنـيـةـ أـيـ الطـعنـ فـيـ صـدـقـ إـيمـانـ مـنـ آـمـنـ بـهـ وـجـعـلـوـاـ قـوـلـهـ (ـ وـمـاـ عـلـمـيـ بـمـاـ كـانـواـ يـعـمـلـوـنـ)ـ تـبـرـؤـاـ مـنـ الـكـشـفـ عـلـىـ ضـمـائـرـهـمـ وـصـحةـ إـيمـانـهـمـ .ـ وـلـعـلـ الـذـيـ حـمـلـهـمـ عـلـىـ ذـلـكـ هـوـ لـفـظـ الـحـسـابـ فـيـ قـوـلـهـ (ـ إـنـ حـسـابـهـمـ إـلـاـ عـلـىـ رـبـيـ)ـ فـحـمـلـوـهـ عـلـىـ الـحـسـابـ الـذـيـ يـقـعـ يـوـمـ الـجـزـاءـ وـذـلـكـ لـاـ يـتـلـجـ لـهـ الـصـدرـ